تقهقر الالمان الاخير

وسببهُ

هذه الحرب التي انقضى امرها ولم ينقض خبرها اسرار كثيرة لا تزال طيّ الكتمان منها ما الايام زعيمة باذاعته ومنها ما لا ترجى اذاعتهُ ابدَ الدهر لاسباب ليس هذا محلّ بسطها

فمن هذه الاسرار معركة المارن الاولى فقد قرأنا عنها اقوال عشرات من الكتّاب علّقوا فيها تقهقر الالمان الفجائي بعد ما بلغوا ابواب باريس فلم نجد في احدها ما يشفع غلة طالب الحقيقة باكملها ولاسيما ان هذه الاقوال صادرة من فريق دون فريق

كذلك من اسرار هذه الحرب معركة المارن الثانية التي افضت الى تقهقر الالمان الاخير والى عقد الهدنة والقضاء على جميع ما كانوا يبنون من العلالي والقصور في اول الحرب . فقد قرأنا في جريدة اميركية ان وقوف ١٥ الف بحّار اميركي في وجه الالمان بعد عبورهم المارن عند شاتوتيازي هو الذي صدّ تيار الالمان الجارف وحوّل تقدمهم تقهقراً . وقرأنا في بعض الصحف الانكليزية ان ثبات الانكليز في اراس هو الذي ادّى الى هذا الانقلاب العظيم في سير الحرب. وسمعنا الايطاليين يقولون ان عظم تبآتهم عند ظهر بياڤي بعد تقهقرهم المشهور هو الذي ردّ كيد الالمان في نحورهم واعاد انتصارهم انكساراً

وبالامس صدر تقرير المرشال هايج الرسمي وفيهِ قولهُ :

« ان حملات الالمان في ابريل الماضي انتهت بالفشل ولكنها كانت عبئاً ثقيلاً على موارد الحلفاء وادرك الحلفاء ان استئناف العدو للهجوم محتمل ولكن يقال من الجهة الاخرى ان العدو خسر في هجومهِ خسارة عظيمة غير انهُ ظل متفوقاً على الحلفاء وعندهُ من القوة ما ابقى الاولية في يدهِ وهي الاولية التي لم يكن لهُ مناص من التعجيل في الانتفاع بها بسبب ازدياد الجيش الاميركي . وكانت خطتنا الحربية تقضي بمواصلة الدفاع الشديد الى ان يتم التوازن بين جيوش الفريقين وكان بدء الانقلاب في الحرب الكبرة التي كرها الحلفاء بقرب سوسون

يوم ١٨ يوليو واسفرت عن النجاح التام فانتقل زمام الاولية الى يد الحلفاء . وقد قابل الانكليز العدو غير مرة وكسروه في اميان وبابوم وشقوا خط التحويلة بين دروكور و « كان » وخط هندنبرج وقهروه امام لكاتو وعلى نهر السال وفي فلندر وعلى نهر السامبر وكسروه اخيراً في المعارك العظيمة التي دارت رحاها يوم اول نوفمبر ويوم ٤ نوفمبر فلما عقدت الهدنة بات بلا احتياطي واخذ يتقهقر على غير نظام وقد سادته الفوضى وعم جيوشهُ الاضطراب

« وكان في وسع الجيوش البريطانية في آخر اكتوبر ان تمنع العدو من التقهقر الى خطوط اقصر من الخطوط التي كان فيها وان تكرههُ على المناجزة للفصل وكان موعد هجوم البريطانيين الاكبر يوم اول نوفمبر بعد سقوط فلنسيان . فالقتال الذي قاتلناهُ في ذلك اليوم وبعدهُ حطمنا به دفاع العدو تحطيماً لا تقوم لهُ قائمة بعدهُ فلم يعد في طاقتهِ بعد ذلك ان يقاتل او يصد الذين يقاتلونهُ فتمَّ الحلفاء خطتهم تنفيذاً فلما وقع مثلهُ في الحروب في كمالهِ . ولما امضي عقد الهدنة كانت مقدرة العدو على الدفاع قد فنيت ولو استمر القتال لنكبت الجيوش الالمانية ولاجتاح الحلفاء بلاد المانيا »

وقد وقفنا في مجلة المجلات الاميركية على مقالة للكاتب المشهور فرنك سموندس قال فيها بعنوان « معركة كمبراي الثالثة واعظم انتصار لانكلترا — خطة فوش — الضربة الفاصلة » ما يأتي :

« ان البحث الذي لم يبسم للجيوش الانكليزية كثيراً في هذه الحرب قد اعانها ما فات اضعافاً ومنحها فرصة لجني اعظم ربح حربي في خمسة قرون . وليست معركة كمبراي الثالثة اذا جردناها من الحواشي والهوامش سوى معركة تمكن بها الجيش من خرق خط هندنبرج ومحوهِ من الوجود وتحقيق الاماني والاحلام التي طالما منى ذلك الجيش نفسهُ بها في خلال اربع سنوات

« وهذه المعركة في جوهرها انتصار انكليزي رغم اشتراك الاميركيين في القتال وما اتى البلجيكيون والفرنسويون من الاعمال الباهرة على الجناحين . وهذا النصر أنزل على ايدي الجيش الرابع الذي كان بقيادة الجنرال رولنصن والجيش الثالث بقيادة الجنرال بنج يعاونهما الجيش الاول بقيادة الجنرال هورن بعض

المعاونة لانهُ هو الذي مهد السبيل للضربة الاخيرة باختراقهِ خط دروكور — كان قبل ذلك ببضعة اسابيع

«ولفهم هذه المعركة تمام الفهم اقول ان الجيوش الانكليزية كانت تؤلف ميسرة القوات التي عهد في قيادتها الى المرشال فوش بين سويسره والبحر. وكان انقتال الذي دار في شهر اغسطس واوائل سبتمبر قد اعاد لودندورف وجيوشهُ الى الخط الذي بدأ هجومهُ الكبير منهُ — ذلك الهجوم الذي أناله انتصاراً باهراً في مارس وابريل ومايو ثم لم يلبث ان صُدّ تقدمهُ في يونيو وتحول ذلك الانتصار انكساراً فاصلاً في يوليو يوم معركة المارن الثانية

«وكان البلجيكيون يحتلون الشقة الواقعة بين نيوبور وكسمود والممتدة جنوباً حذا نهر الايزر. ووقف الجيش الانكليزي الثاني الذي يقودهُ الجنرال بلومر في نتوء ايبر وامامهُ آكام بسكندال التي استولى عليها في السنة السابقة ثم فقدها في ابريل. ووقفت جيوش هورن وبنج ورولنصن بين جيش بلومر عن يسارها وسان كنتان عن يمينها. وجميع هذه الجيوش من البحر الى سان كنتان نسميها ميسرة فوش. ووقف في القلب بين سان كنتان وفردون الجيوش الفرنسوية بقيادة دباني ومنجان وبرتلو وجورو. ورابط الجيش الاميركي الاول حول فردون بقيادة الجنرال برشنج الاميركي. ورابط في الميمنة بين فردون وسويسره جيوش اميركية وفرنسوية ولكنها لم تشترك فعلاً في المعركة التي نحن بصدد الكلام عليها

«وبعد ما بلغ لودندورف في تقهقرهِ خط هندنبرج عقد العزمة على الوقوف عندهُ ومنازلة جيوش الحلفاء فيهِ وغرضهُ ان يثبت هناك حتى الشتاء وحينئذٍ يستطيع اعادة تنظيم قواتهِ المتضعضعة اذ يحول الشتاء دون القتال. وكان يعلم ان خطوطهُ الدفاعية الهائلة قد تلوى او تخرق هنا وهناك ولكنهُ كان يرجو ان تثبت المدة الباقية من فصل القتال قبل الشتاء وقد قدرها بشهر ونصف او نحو ذلك. فاذا ثبت عند خطوطهِ الدفاعية هذه المدة فان ساسة الالمان يستطيعون في خلالها ان ينظموا هجوماً سلمياً على اساس الحالة الحربية وتحوى هذه الحالة تساوي قوات الفريقين المتحاربين بحيث لا يستطيع احدهما ان يخرق خطوط الفريق الآخر فيفتح المجال اذ ذاك لمفاوضات الصلح

اما خطة فوش فتحواها اخراج خصومهِ من خط هندنبرج وادحاض حججهم الحربية والسياسية بالبرهان العملي على ان لا خطوط ولا وسيلة من وسائل الدفاع تستطيع الثبات في وجه الخطة الجديدة التي وضعها الحلفاء للقتال والبرهان على ان الفصل تمكن في ساحة القتال بتدمير خط هندنبرج. ومتى دمر هذا الخط لم يبقَ ريب في ان فوش يستطيع تدمير الخطوط الباقية حتى نهر الرين لانها كلها دون خط هندنبرج في متانتها

وفي اواخر سبتمبر شرع فوش ينفذ خطتهُ ذلك انهُ بدأ يهاجم الالمان في ٢٦ ميلاً من مكانين يبعد الواحد عن الآخر بعداً كثيراً . فبين الارجون ونهر الموز وجه جيش برشنج الى الالمان المرابطين عند خط ساقية فورج وتل مورتومر وتل نمرة ٣٠٤ خلفهم. فتقدم الاميركيون تقدماً سريعاً واستولوا على مونفوكون وفارين ومدن اخرى اقل شأناً منهما . واتموا تحرير فردون من ضغط الالمان بابعادهم عن خط سكة حديد باريس — شالون — فردون بعد ما ظلوا متحكمين فيهِ منذ سبتمبر سنة ١٩١٤ حينما حاول ولي عهد المانيا الاحداق بفردون من كل جانب

وقد اقلق تقدم الاميركيين هذا بال لودندورف واثار هواجسهُ لان تقدمهم كثيراً في واد الموز يقطع خط سكة الحديد التي تصل الجيوش الالمانية في البلجيك وفرنسا بالجيوش التي في الاراس واللورين وهذا الخط هو خط متز — مزيير — ليل . فرأى ان يزيل هذا الخط مهما كلفتهُ ازالتهُ وعليهِ انفذ الاحتياطي شرقاً الى الشقة المذكورة فاوقف بهِ الجيوش الاميركية عند حدّها او بقيت تتقدم تقدماً بطيئاً ولكنها ما فتئت شوكة في جنبهِ تهدده تهديداً يثير بلابلهُ ويقضُّ مضجعهُ

هذا هو المكان الاول لهجوم الحلفاء اما المكان الثاني فعلى اقصى يسرتهم فان البلجيكيين والجيش الانكليزي الثاني الذي يقودهُ بلوسر عمدوا الى الهجوم بين ترعة دكسمود ونهر اليس فاخرجوا الالمان من جميع الميادين المشهورة حول نتوء ايبر واستعادوا آكام بكندال وبقوا يتقدمون حتى بلغوا مهول فلندر وراءها وبذلك هددوا رولر ومنين بل ضمنوا استرطهما في ايديهم وبات موقف الالمان في

شقة ليل كلها وعلى حداء ساحل البلجيك محفوفاً بالخطر . وهذه الحركة مكنت الحلفاء من فعل ما اخفقوا فيه في اكتوبر سنة ١٩١٤ وفي السنة الماضية وهو ادخال اسفين بين الالمان الذين على الساحل والذين في ليل واكراههم على التقهقر من ارض الساحل فاهاب لودندورف باحتياطيه هنا كما اهاب به هناك فلباه واوقف تقدم البلجيكيين والانكليز كما اوقف تقدم الاميركيين في قردون ولكن فوش استقدم جيش الجنرال دجوت من تنوء المارن لاستئناف الهجوم حين الاقتضاء

ولكن هاتين الحركتين الجانبيتين على عظمهما انما اقدم فوش عليهما تمهيداً لضربته البكر . فقد اكره اعداءه على تحويل احتياطيهم وجهودهم الى طرفي الخط فتحفز للضرب عند القلب . وقرر ان يضرب بالجيوش الانكليزية لانها قضت مدة طويلة تنظم وحدتها بعد المعارك الهائلة في الربيع السابق . وكان مدار خطته ان يوجه جيوش هورن وبنج وروولنصن الى خط هندنبرج بين كمبراي وسان كنتان اي بين نهري السنمه والواز فاذا اخترق هذا الخط جلا الالمان عن ليل وساحل البلجيك وغابة سان جوبان ولان . وبعبارة اخرى كان ينوي ادخال اسفين في الجيوش الالمانية حيث تتصل ميمنتهم بقلبهم ودفعهُ بسرعة الى حدود البلجيك زاجفاً بين نهري الصامبر والشلد . فاذا نجح بضربته هذه نجاحاً يذكر اضطر الالمان بين نهري الايزر والموز الى التقهقر وبذلك يسترد الفرنسويون جميع اراضيهم الباقية في ايدي الالمان . على ان المهمة الاولى في انفاذ هذه الخطة الشاملة خرق خط هندنبرج بين سان كنتان وكمبراي وهو خط عمقهُ ١٢ ميلا تحميه خيرة الجنود الالمانية

وقعت الضربة في الاسبوع الثاني من اكتوبر وبدأ الفصل في اليوم الثامن منهُ على ايدي جيشي بنج وروولنصن بمساعدة فرقة اميركية وجيش الجنرال دبنيه الفرنسوي بين نهري السوم والواز . وكان القتال على احرّه في منتصف الطريق بين سان كنتان وكمبراي حول لاكتليه . وبلغ طول خط الهجوم ٢٠ ميلا الى ٣٠

في ٨ اكتوبر (يوم الثلاثاء) نرض الانكليز الفرقة الاولى في خط هندنبرج .

وفي اليوم التالي الاربعاء ازدادت الفرضة اتساعاً . وفي يوم الخميس خرقوا الخط خرقاً تاماً فبات في خبر كان وأخذت كمبراي كما اخذت سان كنتان قبلها بزمان طويل وجعل الانكليز يزحفون على لكاتو . وفي يوم الجمعة كانوا قد قطعوا ١٤ ميلاً منذ بدء هجومهم وغرضهم الاول فلنسيان وموباج فبات هم الالمان الجلاء عن ليل ودواي ولان والاً وقمرا في الاسر

وفي اثناء هجوم الانكليز في الميسرة نشط الفرنسويون والاميركيون في القطب اي شمالنا واللورين وتقدم جيشا جورو وبرتلو شمالي ريمس فحرراها من مدافع الالمان . وعاد الاميركيون الى الشرق يهجمون فاخرجوا الالمان من الارض التي ربحوها سنة ١٩١٨ شمالي الارجون . وزحفت فرقة ايطالية في جيش الجنرال منجان فاجتازت طرف شمان ودام الشمالي مجاراة للجنود الفرنسوية التي الى جنبها . وعليه جعل خط الالمان ينهار من الايزر الى الموز وكان انهياره على اسرعه امام الانكليز . اما امام الفرنسويين فكان تقهقرهم منتظماً وبقوا ثابتين في مواقفهم امام البلجيكيين غربي نهر الايزر

وخلاصة القول ان احلامنا كلها التي حلمناها في اربع سنين تحققت في اسبوع واحد فان ايبر واراس وريمس وفردون اصبحت بعيدة عن مرمى المدافع الالمانية وادخلت كمبراي وسان كنتان وعشرات من المدن الصغرى ضمن خطوطنا آمنة عدوان الالمان . وبدأ تحرير شمال فرنسا وجعل يتقدم بسرعة مدهشة . واخذ الالمان يتقهقرون على شكل يجعل عودهم الى الهجوم مستحيلا

وقد حصر الالمان في مارس وابريل جهدهم في الشقق التي بين ايبر ونهر الواز فلما اخذ دفاعهم يتضاءل فيها اشتد ساعد الفرنسويين والاميركيين في جهة فردون والارجون . وهذا كلهُ شاهد باهر بفضل الخطط الفرنسوية على الخطط الالمانية . فقد كانت خطة الهجوم الالماني قائمة بضربة واحدة كبيرة تنهك قوى الضارب والمضروب معاً . اما الخطة الفرنسوية فمدارها على سلسلة طويلة من ضربات صغيرة تضرب في اماكن ضعيفة . وهي ليست كخط عشواء بل ضربات متكافئة مدبرة من قبل تدهش الجاهل بكثرتها وتباعدها بعضها عن بعض ولكن لا ينبث الباحث فيها ان يتبين انها اجزاء متصلة من خطة مدبرة .

وهذه الخطة ليست جغرافية بل حربية اي ان الغرض منها ليس اخذ البلاد بل كسر الجيوش

وان ما جرى للجنرال لودندورف في هجومهِ الذين وجههما الى الانكليز اولاً والفرنسويين ثانياً في الربيع الماضي هو ما جرى للفرنسويين في هجوم شمبانيا سنة ١٩١٥ . وللانكليز والفرنسويين في هجوم السوم سنة ١٩١٦ . وللجنرال نيفل في الاين . وللمرشال هايج في فلندر في السنة الماضية . فانهم تقدموا في مبدإ المعارك المذكورة ولاح لهم ان النصر حليفهم ثم قلّ تقدمهم ووقفوا في اماكنهم وعلموا بالخُبر ان كلّ جهد يقدمون عليهِ بعد ذلك ليتقدموا انما هو جهد ضائع يبذلون فيهِ المهج على غير طائل . وقس على ذلك لودندورف فانهُ تقدم في المكانين اولاً ولكنهُ عاد فوقف ثم تقهقر تقهقرهُ المشهور

وعليهِ يقال ان فوش لم يستردّ ارضاً ولا قهر جيوشاً ولكنهُ ضرب النظام الالماني العسكري ضربة قاضية. انتهى

وقد كتبت هذه المقالة في اواخر اكتوبر الماضي وشبه الكاتب معركة كمبراي الثالثة بمعركة ليسك في حروب نبوليون ظنّاً منهُ ان المعركة الفاصلة تأتي بعدها كما جاءت معركة وترلو بعد ليسك . وقد ارتأى في باقي مقالتهِ ان الالمان يستطيعون الوقوف عند خط الموز والشات فيهِ مدة الشتاء لاستئناف القتال في الربيع القادم . وانهم ينتهزون فرصة وقوف القتال للقيام بهجوم الصلح . ولكنهُ قال في ختام مقالتهِ انهُ مهما يكن من دفاع الالمان فان الحلفاء ربحوا الحرب ولو لم يكسروا الجيش الالماني كما كُسر نبوليون الاول في وترلو او الثالث في سيدان

اما وقد جرى ما جرى منذ كتبت هذه المقالة من عقد الهدنة وتسليم المانيا والقاء الجيوش الالمانية لسلاحها فقد يصحُّ القول ان معركة كمبراي الثالثة هي معركة الحرب الفاصلة وانها اشبه المعارك بمعركة وترلو لا بمعركة ليسك